الحرب على الإنسان

إهداء

إلى دين وجيردا كونتز...

أشخاص استثنائيون، وأصدقاء أعزاء.

المؤلف

الحرب على الإنسان

تأليف: ويزلي سميث

ترجمة: جنات جمال

دار الكاتب للنشر والتوزيع
Elkateb for Publishing and Distribution

الحرب على الإنسان

The War on Humans

ويزلي سميث

Wesley J. Smith

ترجمة: جنات جمال

مراجعة وتعليق: عائشة محمد

الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠١٨

مقاس الكتاب: ١٧*٢٤

رقم الإيداع: ٢٧١٠٦ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٤٥-١٠-٦

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (دار الكاتب) أو (مركز براهين)، وإنما بالأحرى عن وجهة نظر المؤلف.

دار الكاتب للنشر والتوزيع

أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٠٩٤(٠٠٢) - ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)

بريد المبيعات: sales@braheen.com

صفحات المبيعات: braheen_books braheen.bookstore

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2018 by **Braheen Center**

The War on Humans

Copyright © 2014 by *Wesley J. Smith*

Published by arrangement with **Discovery Institute Press**, Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with **Braheen Center** and is not the responsibility of **Discovery Institute Press**. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder **Discovery Institute Press.**

Braheen Center for Research and Studies, Ltd.

عن المؤلف

ويزلي سميث Wesley J. Smith هو محامي سابقا وصحفي ومؤلف حاليا. هو أيضا زميل أقدم في مركز (استثنائية الإنسان) التابع لمعهد ديسكفري، ومستشار لمجلس حقوق المرضى Patients Rights Council.

ينصب مشروع سميث الفكري على الدفاع عن استثنائية الإنسان، وله العديد من الكتب الهامة في هذا الملف؛ منها (خروج قهري: القتل الرحيم، والانتحار بمساعدة الغير، والواجب الجديد للموت)، و(ثقافة الموت: الاعتداء على الأخلاقيات الطبية في أمريكا)، و(دليل المستهلك لعالم جديد شجاع)، و(الفأر، هو الخنزير، هو الكلب؛ هو الطفل: الثمن البشري لحركة حقوق الحيوان).

تحذير

هذا الكتاب صادم جدًا، من مقدمته وحتى نهايته،
وبالتالي لا ينصح به لغير المهتمين.

تحذير آخر...

بسبب طبيعة الاستشهاد في الكتاب، فكل الأفلام السينمائية التي سيتعرض لها سيحرق تفاصيل أحداثها.

لماذا هذا الكتاب؟!

صدمت مارڤيل في فيلمها الأخير (Avengers: Infinity War)* الجميع، حينما سمحت للشرير الرئيسي في عالمها السينمائي الممتد (ثانوس Thanos) بتحقيق فكرته المالتوسية بالقضاء على ٥٠% من السكان (سكان الأرض وبقية الكواكب والمجرات)، بما فيهم من أبطالها الخارقين الذين أنفقت سنوات على تسويقهم للجمهور. الكثيرون ظلوا في مكانهم بعد نهاية الفيلم من هول الصدمة. ولا نبالغ إن قلنا أنه منذ عرض الفيلم في إبريل الماضي، وحتى صدور هذا الكتاب في أغسطس ٢٠١٨، شغلت هذه المذبحة الجماعية المفاجئة جمهور مارڤيل، ومتابعي السينما بشكل عام.

بالطبع هذا الكتاب ليس لمناقشة الحرب على الإنسان في السينما ولا في أي عوالم خيالية، ولكن الأغرب من ذلك أن الواقع قد يكون أغرب بكثير من الخيال. المبدأ الذي ينطلق منه ثانوس في الفيلم هو المالتوسية القديمة؛ قلة الموارد في مقابل كثرة السكان. والحل الذي يقدمه داخل الإطار السينمائي الخيالي هو الإبادة العادلة –غير المتحيزة– لنصف السكان، لكي يستمر البقية منهم على الحياة، ولكي ينعموا بحياة أفضل. أما الواقع المرير الذي نلقاه من الاتجاه البيئوي الراديكالي المعاصر، فهو المطالبة والترويج والسعي لتقنين الخفض الجذري لعدد البشر على الأرض، لا لصالح بقية البشر، وإنما لصالح كوكب الأرض!

نعم، ما قرأته صحيح، ونعم، شعارهم الذي لا يسبب لهم أي نوع من الإحراج: "لإنقاذ الكوكب، اقتل نفسك!".

لكن دعنا نعود قليلا إلى الوراء، كيف بدأت هذه الفكرة في التكون؟ الإجابة عند داروين بالطبع، ويوضح ذلك بيتر سينجر (أستاذ الأخلاق الحيوية بجامعة برينستون): "كل

* حقق الفيلم إيرادات تجاوزت ٢ مليار دولار، وما زال عرضه مستمرا.

ما نفعله هو محاولة اللحاق بركب داروين. أظهر لنا منذ القرن الـ ١٩ أننا مجرد حيوانات... كان البشر يتخيلون أننا جزء منفصل عن بقية المخلوقات، وأن هناك فاصل سحري بيننا وبينهم. لكن نظرية داروين قوضت أسس ذلك التفكير الغربي عن مكانة النوع الإنساني في الكون".* ولعل الأمر لا يحتاج إلى مزيد توضيح، فببساطة، بما أن البشر مثلهم مثل غيرهم من الكائنات الحية على سطح الأرض، فما هو المسوغ لاستغلالهم لأنماط الحياة الأخرى المساوية لهم في القيمة؟

سارت الفكرة في هذا الطريق، فنشأت حركات حقوق الحيوان، وحينما نتحدث عن حق الحيوان في الحياة، فنحن نتحدث عن توقف كامل لأي غذاء بشري معتمد على مصدر حيواني، ولأي تجارب علاجية معتمدة على التجريب على الحيوانات.

إذن، هل سنصبح كلنا نباتيين؟ بالطبع لا، لأن النبات أيضا له كرامة.

غير مسموح لك باستعمال الحيوانات ولا النباتات، وبالطبع من غير المسموح استعمال الوقود لأن الاحتباس الحراري قضية لا تقبل النقاش، ولا يسمح أصلا باستغلال الموارد الطبيعية، لأن الطبيعة بكل ما فيها مساوية للإنسان في القيمة.

هذه ليست مزحة، فهذا قانون دستوري في دولة أوروبية كسويسرا يجرم إهانة النباتات، لأن النباتات لها كرامة بالطبع، وهذا قانون آخر يعطي للطبيعة حقوق مماثلة للبشر في ولاية سانتا مونيكا الأمريكية، والقائمة تتسع مع الوقت، فلك أن تتخيل قدر الكارثة التي نتحدث عنها. لا نتحدث عن شطحات فكرية لبعض الفلاسفة، ولا نتحدث عن مجموعات حقوقية صغيرة، نحن نتحدث عن جهود نجحت في تشريع قوانين بالفعل، وعن مشاريع قوانين تناقش

* في مقابلة أجراها معه جوهان هاري في عام ٢٠٠٤ على صحيفة الإندبندنت البريطانية:
https://www.independent.co.uk/news/people/profiles/peter-singer-some-people-are-more-equal-than-others-551696.html

في الأمم المتحدة والقمم الحكومية الدولية، ويتبناها أشخاص على قدر رفيع من المسؤولية.

وهكذا، انطلقنا مع داروين وهدم فكرة استثنائية الإنسان، ومررنا بحقوق الحيوانات، ثم النباتات، ثم كل مكونات الطبيعة، ثم الأرض. فإن كانت المقارنة بين استمرار النوع البشري (نوع واحد ضمن ملايين الأنواع) وبين استمرار كوكب الأرض، فمن الطبيعي أن ترجح كفة كوكب الأرض.

بالرغم من أن هذا الكتاب يركز على دعاوى معاداة البشر من التيار البيئوي الراديكالي، لكنه يعطينا نافذة على تصور عملي واقعي لحياة البشر في ظل الإلحاد. فمن يتحرك في إطار فكري لا يوجد فيه إله ولا قيمة جوهرية للإنسان ولا مرجعية أخلاقية حاكمة ولا حياة غير هذه؛ فلا نستغرب منه أن يقع في مستنقع معاداة الجنس البشري ككل، ولا استهجان له إن رغب في القضاء على الغالبية العظمى من البشر لكي يحافظ على الكوكب، خاصة إن كان مقتنعا أن البشر هم الوباء الأكبر على هذا الكوكب. ولكن بالطبع ليس معنى هذا أننا نقول بالتلازم بين الإلحاد وبين البيئوية المعادية للبشر، فالإلحاد شرط ضروري للإيمان بالبيئوية المعادية للبشر، ولكن العكس غير صحيح.

فبالرغم من أن مؤلف هذا الكتاب لاأدري، بمعنى أنه لم يحسم موقفه بعد من وجود الإله، لكنه يتفق مع المنظور الديني تماما في قضية تميز النوع البشري واستثنائية الإنسان. كذلك الحال بالنسبة لتيار الهيومانية أو الإنسانوية، وهي فلسفة تؤكد على استثنائية الإنسان، بالرغم من كونها علمانية أو إلحادية. فلا شك أنها أفضل بكثير من الدعوات الفاسدة لمساواة الإنسان بغيره أو لمعاداته والتعامل معه كمرض ينبغي الخلاص منه. ولكن مشكلتنا مع الهيومانية العلمانية هي أنها تدعي إمكانية التأسيس للأخلاق والقيم بدون الدين، فمن الناحية العملية لا شك أنها تقف في خندق واحد مع الأديان للدفاع عن الإنسان، ولكن من الناحية النظرية هي نفعية غير مبررة، ولا تجد ما يسوغها. وعسى أن

يعذر القارئ الاختصار المخل في العرض، فسؤال التأسيس للقيمة والأخلاق خارج الإطار الديني أكبر من أن نتمكن من الإلمام به في سطور قليلة كهذه.

النماذج الإلحادية المجتمعية أفرزت لنا أسوء الأنظمة الحاكمة على الإطلاق، وإن أردنا ألا تتكرر نماذج هتلر وستالين من جديد، فعلى الجميع الانتباه للحركة البيئوية الراديكالية، فالمقدمات لا تبشر بخير، والجنون الذي تتبناه تلك الحركة ونشطائها ينبئ عن كوارث قد تتساقط أمام عظمتها النازية والماوية الصينية والستالينية السوفيتية.

مركز براهين

مقدمة

البشر هم العدو!

صرح مذيع العلوم الكندي (ديفيد سوزوكي David Suzuki) لمجموعة من الطلاب الضاحكين "أحد الأشياء التي توصلت إليها مؤخرا... هي أن جميعنا في الأساس ذباب فاكهة". ولكن ذلك كان مجرد البداية، فبعدها بدأ سوزوكي بتشبيهنا بـ"**الديدان**" التي "تولد كبيضة" ثم "في نهاية المطاف تفقس وتبدأ بالزحف متنقلة هنا وهناك" تأكل و"تتغوط في جميع الأنحاء".[1]

تحقير البشر بتشبيههم بالديدان كان مهيجا للمشاعر في تلك الأيام (وبدا سوزوكي ممثلًا لفترة السبعينات بشعره الطويل المنسدل ونظارة چون لينن المستديرة)، ولكن القلة أخذوا هذه التصريحات على محمل الجد. كان الغاية من تلك التصريحات هي الصدمة، أو جذب الانتباه، أكثر من كونها حضا على كراهية حقيقية للبشر. في ذلك الوقت، لم تقم حركات حماية البيئة بالتقليل من شأن البشر عموما، لكن نادت بمنع وتقليل مصادر التلوث، كما نادت بحماية الأنواع المهددة بالانقراض بإقامة المحميات باعتبارها مسألة واجب إنساني. **تلك هي الأهداف النبيلة، وتلك التي أؤيدها.**

للأسف، اندثرت القيم الأساسية لحركات حماية البيئة الأولى تماما، مثلما حدث مع السراويل الواسعة الأرجل. وفي السنوات الأخيرة، مثلما ينخر النمل الأبيض أساسات المباني (لنستعر تشبيه يشبه حديث سوزوكي)، انحدرت معاداة الإنسانية بفكر مناصري حماية البيئة. أصبح ناشطي حماية البيئة اليوم يحطون بشكل روتيني من قدر البشر بتشبيههم بالطفيليات، والفيروسات، والسرطانات، والبكتيريا؛ فهم القتلة على الأرض.

لم تتغير بالتأكيد وجهات نظر سوزوكي المعادية للبشرية، وهو يتمتع الآن بشهرة عالمية، كما أنه ناشط في مكافحة ظاهرة الاحتباس الحراري في العالم. وعندما وجه إليه السؤال من قبل إحدى محاوري الهيئة الكندية للإذاعة عام ٢٠٠٩ عن مدى تغيير تصوره

"غير المتفائل تمامًا" للإنسانية منذ وصفه للبشر بالديدان، تهرب سوزوكي من السؤال وانحرف بالإجابة مشيرًا بأن العنصرية قد قلت، لكن تأسف قائلًا "البشر هم البشر... أنا **أتمني فقط أن يتوقفوا عن كونهم بشريين لهذا الحد!**".[٢]

تبنت الثقافة الشعبية بالطبع فكر سوزوكي المعادي للإنسانية. يقدم إعادة إنتاج فيلم الصف الأول (**يوم صمدت الأرض The Day the Earth Stood Still**) في ٢٠٠٨، ببطولة النجم الكبير (كيانو ريفز Keanu Reeves)، أفضل مثال حي على ذلك. في نسخته الأولى في ١٩٥١، قدم الممثل اللطيف (مايكل رايني Michael Rennie) شخصية الكائن الفضائي (كلاتو)، والذي أتى بواسطة مكوك فضائي لأجل مهمة حسنة النوايا مفادها إنقاذ البشرية من نفسها.[٣] حيث يُعلِم قادة دول العالم أن المجتمع الفضائي يدرك تماما التفوق التكنولوجي المتنامي لدينا، ويرحب ترحيبا حارًا بنا، متشرفًا بانضمامنا للنادي النجمي. ولكن بسبب تخوفاتهم من توجهاتنا شبه الحربية، قاموا بتعيينه لتحذيرنا أننا يجب أن نكون مسالمين، وإلا إذا هددنا بنشر العنف في الفضاء، فإننا سنواجه دمار محقق من الروبوت القاتل (جورت Gort).

وككل أفلام الخيال العلمي الجيدة، استعان الفيلم بفرضية خيالية للتنبيه للهواجس الثقافية المعاصرة. وجاء الفيلم في الوقت الذي كانت الحرب الباردة فيه تزداد لهيبا. اندفعت كوريا بالفعل تجاه الحرب. وكان كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية يعملان على تطوير أسلحة نووية أكثر تدميرًا. أصيب الناس بفزع من أن البشرية قد تمحي نفسها في مشهد نهاية عالم نووي. عكّس الفيلم وجهة النظر الدامغة بأن البشرية تستحق، ليست فقط الحماية، بل وتستطيع أيضًا أن ننقذ نفسها، لو اتبعنا أفضل ما في طبيعتنا كبشر.

كان ذلك في الخمسينات. لكن رسالة الفيلم الجديد، لم تكن أكثر قتامة فحسب، بل كانت تصرخ بشعارات الكراهية **ضد الجنس البشري**. لم يكترث المجتمع الفضائي في

هذه النسخة كثيرًا بالحفاظ على النوع الإنساني، ذلك لاعتقادهم بعدم جدوانا وعدم استحقاقنا للجهد المبذول منهم تجاهنا.* بل على العكس من ذلك، فقد تبدل (كلاتو) من صديق جيد للبشر، إلى عدو مهيب خطير. ولم يعد (جورت) الروبوت القاتل تهديدًا محتملًا لمستقبلنا، لكن كان سلاحا موجها مباشرة صوبنا، في مسعي لهولوكوست كامل للبشر. لماذا كل ذلك؟ ليس لأن الحضارة الفضائية متخوفة من الحروب التي قد ننشئها نحن في الفضاء، لكن لأن السبيل الأوحد **لإنقاذ الأرض** هو **الإبادة الجماعية**.

يبرر (كلاتو) السعي نحو انقراض البشر بعبارات فظة تماما، وبنتيجة واضحة، وهي أن الأرض كيان حي في حد ذاته.

كلاتو: هذا الكوكب يموت، البشر يقتلونه.

هيلين بِنسون: إذن، أنت أتيت هنا لتساعدنا؟

كلاتو: لا، لم أفعل.

هيلين بِنسون: قلت إنك قدمت لإنقاذنا!

كلاتو: بل قلت، قدمت لأنقذ الأرض.

الجدير بالذكر أيضا أن الصحن الطائر الخاص بكلاتو، قد استبدل بمجال أزرق يشبه كوكب صغير بغيوم تغلفه. سرعان ما تتلاحق كرات شبيهة بالأرض في الوصول، ويتضح فيما بعد أنها تقوم مقام سفينة نوح، لكن فضائية، في جمع كل الأنواع من على الأرض، بحيث يمكن إرجاعها لتنمو من جديد بدون أي تدخل أو مضايقة، بعد الإفناء الكامل للبشر.

وكما في النص الأصلي، يتم إطلاق النار على (كلاتو) ويعتقل ويستجوب، ثم يستطيع

* الأدهى من ذلك أن (كلاتو) في حواره مع وزيرة الدفاع الأمريكية ينكر أن تكون (الأرض) كوكبنا أصلا!

أن يهرب. يصبح صديقا لولد وأمه*، دون علم الفتى (في البداية) بأن صديقهم الجديد هو ذلك الفضائي الهارب. ثم يرتبوا هم وعالم حاصل على جائزة نوبل في الإيثار البيولوجي –أدي الدور أحد أبطال المسلسل الكوميدي (مونتي بايثون Monty Python) الممثل (چون كليز John Cleese)– لإقناع (كلاتو) بأن الإنسانية تستحق البقاء. فرغم كل شيء، لدينا **موسيقي** كلاسيكية!‡ ولكن قبيل أن يلغي الإبادة الجماعية، يتحول (جورت) إلى سرب نانوي ضخم وينتشر بسرعة رهيبة، مبيدًا كل ما في طريقه.

وفي آخر لحظة ممكنة، يلغى (كلاتو) مهمة انقراضنا، لكنه يحذرنا أن خلاصنا سيستلزم تكلفة كبيرة؛ فبينما كان مجاله الفضائي يغادر الغلاف الجوي للأرض، انبعث منه نبضة أدت إلى تعطيل **كل التكنولوجيا الموجودة** على الأرض. والرسالة واضحة؛ لكي تتعايش بسلام مع الكوكب، يجب أن نعود إلى مرحلة ما قبل التكنولوجيا. ولم يُذَكَّر في هذه "**النهاية السعيدة**" الحقيقة المرة بأن مثل هذا الانهيار المفاجئ للتكنولوجيا، سيتسبب حتما في مقتل المليارات بالجوع والمرض.

وللأسف، لا يعتبر فيلم (يوم صمدت الأرض) الوحيد في قائمة الأفلام الهوليوودية الشهيرة التي تنشر تلك الفكرة **المسممة**؛ أن البشر يستحقون أن **يمحوا** من على وجه الأرض بسبب **ما يفترض أنه** ضرر غير معقول في حق المجال الحيوي. فيلم (الحدث The Happening) في ٢٠٠٨، من بطولة (مارك ولبيرج Mark Wahlberg) ومن كتابة وإخراج صانع الأفلام البارز (إم نايت شيامالان M. Night Shyamalan)، يقدم حكاية مروعة لنهاية العالم بسبب ثورة على الهيمنة القمعية للإنسان؛ على يد النباتات![٤]

---

* أمه هي التي كانت تحاور كلاتو في الحوار السابق، وهي (هيلين بِنسون) عالمة الأحياء الفلكية.

‡ حين سمع كلاتو مقطع من موسيقى باخ أثناء مقابلته للبروفيسور وصفها بأنها جميلة، فرد البروفيسور بأننا لسنا مختلفين تماما عن بعضنا البعض، وبدأ الحوار الذي من شأنه أن يغير من قرار كلاتو.

يبدأ الفيلم بمشهد لأشخاص على الساحل الشرقي يقومون فجأة بانتحار جماعي، ونرى مشاهد مروعة تنهار فيها الحضارة بشكل سريع. لنكتشف في النهاية بأن النباتات شنت تمردًا عنيفًا من خلال إفراز "**فيرومونات انتحار**"، كلما تجمع البشر في مجموعات كبيرة وتعرضوا لتلك الفيرومونات يجبروا على قتل أنفسهم بشكل فوري وبأي وسيلة ممكنة؛ كالاستلقاء أمام آلة جز العشب، أو صدم السيارة بالجدران، أو القفز من المبنى، أي شيء.

يسرد شيامالان –كما فعل في فيلم الغزو الفضائي (**الإشارات** Signs)[٥]– قصته المروعة من المنظور الصغير لعائلة وأصدقاء ولبيرج حينما يتعاملون مع الفوضى العارمة. وكلما انتشرت حالات الانتحار الجماعية في جميع أنحاء شمال شرق البلاد، تُدفع دائرة ولبيرج الصغيرة بصورة مطردة إلى زوايا أضيق وأضيق. تلجأ المجموعة الصغيرة إلى منزل نموذجي في تنمية قطاع الإسكان. وحينما أدركوا أن النباتات تطلق فيرومونات الانتحار كلما وجدت عددًا معينًا من البشر، وأن العدد اللازم لتحفيز إطلاق هذه الفيرومونات يتقلص، هرب ولبريج والمجموعة المصاحبة له من التجمع الأكبر للاجئين. وبمجرد أن بدأ أفراد المجموعة الأكبر في قتل أنفسهم بشكل جماعي، مر ولبيرج ومن معه بجانب لافتة دعائية ضخمة لأحد الشركات العقارية، حيث تحمل رسالة الفيلم الصريحة "**لأنك تستحق ذلك**".

في نهاية المطاف تنتهي الهجمات. لكن لكيلا يظن أحد أنها كانت مجرد مصادفة، يخبرنا خبير بيئي على شاشات التلفاز بأن ما حدث كان تحذيرا أرسل من النباتات لنغير من أساليب حياتنا*، وإلا! يظهر مشهد آخر في باريس، حيث يبدأ الناس من جديد في قتل أنفسهم في الشانزيليزيه.

من المريح نسبيا أنه لم يحقق أيا من هذه الأفلام المعادية للبشرية نجاحًا كبيرًا في

* يقول الخبير البيئي في هذا المشهد بالنص: "لقد أصبحنا نشكل **تهديدا لهذا الكوكب**، لا أظن أن أحدًا سيجادل في هذا"، وهي نفس الفكرة التي في الفيلم السابق.

الإيرادات.* إلا ان الحقيقة تظل أن منظومة استوديوهات هوليوود –دائمة الجشع– تؤمن بأن هناك سوقا ترفيهية للأفكار المناهضة للإنسانية يجب أن تستغل ويصرف فيها مئات الملايين من الدولارات، وعدد لا يحصى من ساعات العمل لأكثر المواهب براعة في هذه الصناعة، لنشر أحلك اتجاهات البيئوية تطرفا في العالم كله. (يعد الفيلم الذي حقق نجاحا ساحقا "Avatar"‡ مثالا آخر.[٦]) في الواقع ظهور الرسائل المعادية للبشرية في أفلام الصف الأول في هوليوود، يبرهن على أن العدمية البيئية قد تجاوزت الحد –كما الفيرومونات في فيلم الحدث– وبدأت في إفساد الثقافة العامة.

استراتيجية الدعوة لكراهية **الجنس البشري** كانت تثير الاستغراب ذات مرة، ولكن الآن مع الأسف –كما سنرى لاحقًا– نجد تلك الفكرة متوقعة تماما من **البيئوية**.

لم تقتصر هذه الاتجاهات المناوئة للبشرية واستخدام التكنولوجيا على الخيال فقط.

---

* في عام ٢٠٠٨، حقق فيلم (The Dark Knight) المركز الأول بإجمالي إيرادات حوالي مليار دولار، والجزء الرابع من سلسلة (Indiana Jones) المركز الثاني بإيرادات بلغت ٧٨٦ مليون؛ بينما يأتي فيلم (The Day the Earth Stood Still) في المركز الـ٢٥ بإيرادات ٢٣٣ مليون دولار، وفيلم (The Happening) في المركز الـ٤٠ بإيرادات ١٦٣ مليون دولار. والشاهد، هو أنه بالرغم من أن تلك الأفلام لم تصل إلى المراكز الأولى في صندوق الإيرادات، ولكنها حققت انتشارًا نوعيًا لأفكارها.

‡ لا شك أن قصة فيلم **أڤاتار** لا تعتبر بشكل عام ترسيخا للأفكار البيئوية، فالصراع الأساسي في القصة هو صراع ضد المستعمر الجشع، لكن هناك عبارات –بعيدا عن أي تحليلات أو مراجعات للفيلم– لا يمكن فهمها إلا في إطار البيئوية، لعل من أهمها حديث سولي (بطل الفيلم) عن البشر مع إيوا (إلهة السكان الأصليين) قبيل أحداث النهاية: "انظري إلى العالم الذي أتينا منه، لا يوجد شيء أخضر هناك، لقد قتلوا أمهم؛ وسيفعلون الشيء نفسه هنا". والأسوأ من ذلك بمراحل، هو الجملة العابرة التي قالها سولي بعد هزيمة الشركة وجنودها (رمز المستعمر) على يد السكان الأصليين (رمز المقاومة): "أعيد الغرباء مجددا **لكوكبهم الميت**". فإذن الفيلم لا ينحاز فقط إلى السكان الأصليين ضد ظلم وجشع **بعض** البشر، ولكنه –على لسان بطله– غير عابئ بحياة **البشر** ككل!

كما لم تقتصر أيضا على السيكوباتيين مثل الشهير (تيد كازينسكي Ted Kaczynski) أو مفجر الجامعات والطائرات.[٧]

تأمل مثلا هذه الدعوة التي تبدو جيدة؛ **ساعة الأرض** Earth Hour، والتي تدشن كل عام في جميع أنحاء العالم لحث الناس لغلق الأضواء والأجهزة الكهربائية لمدة ٦٠ دقيقة. لطالما كنت أفكر في دعوة **ساعة الأرض** بنفس الطريقة التي أفكر بها في تلك الحملات واسعة الانتشار والتي يكون لها شريط مميز يعلق على الصدر؛ فهي تعطي الناس شعورا بالرضا عن أنفسهم للاهتمام، بدون إلزامهم بالقيام بتضحيات شخصية.

لكن بعد ذلك قرأت عمود الصحفي (روس ماكيتريك Ross McKitrick) في جريدة (ڤانكوڤر سّن Vancouver Sun) وأدركت أن الرسالة التي تقبع وراء ساعة الأرض —إن لم تكن نيتها الواضحة— مدمرة جدًا:

> الفكرة الأساسية التي تقبع وراء الدعوة إلى ساعة الأرض هي تشويه استخدام الكهرباء... **ساعة الأرض** تحتفي بالجهل والفقر والتخلف. ومن خلال إنكار أكبر محرك لتحررنا، أصبحت ساعة مكرسة لخدمة الفكر المعادي للبشرية. فهي تشجع على تلك اللفتة المتظاهرة بالصدق في غلق أجهزة كهربائية تافهة ولمدة تافهة —لتعظيم تلك الفكرة المجردة المبهمة المسماة **بالأرض**—، في حين يتم الاحتفاظ بكل نفاق على المنافع الحقيقية لوجود كهرباء مستمرة ويعتمد عليها.
>
> أولئك الذين يرون الأفضلية في الاستغناء عن الكهرباء، يجب عليهم أن يغلقوا الثلاجة والفرن والميكروويف والكمبيوتر وسخان المياه والأضواء والتلفاز وكل الأجهزة المنزلية الأخرى لمدة شهر مثلا، وليس ساعة واحدة! ثم لننتقل بعدها إلى وحدة القلب في المستشفى ونغلق الكهرباء هناك أيضا![٨]

قد يقول البعض؛ ويزلي! ساعة الأرض ما هي إلا نشر لفكرة ضرورة ترشيد استهلاك الطاقة. ربما... لكني أظن أن ماكيتريك لديه الكثير ليخبرنا به.

بالنظر إلى النطاق الأوسع للبيئوية نجد أنها قد أصبحت على نحو متزايد عدمية ومضادة للتجديد **ومعادية للبشرية**، لدرجة أن مفهوم المحافظة على موارد الطبيعة أصبح مفهوما باليًا لأنه ينطوي على صلاحية استغلال الموارد لخلق الثروة والازدهار. وكما سنتناول في الصفحات التالية، للجانب المعادي للبشرية لدى الحركة **البيئوية** الحالية مظاهر عديدة:

- **حركة الإيكولوجيا العميقة التي ستدمر البشر ليصل عددهم لأقل من مليار؛**
- **الاتجاهات الجائرة والمضادة للنمو لدى المهولين من ظاهرة الاحتباس الحراري؛**
- **المفهوم المثير للسخرية؛ منح حقوق قانونية واجبة النفاذ للطبيعة؛**
- **والحملة الدولية المصاحبة لها لتجريم استغلال الموارد ومشاريع تنمية الأراضي على نطاق واسع، بسبب كونها "مدمرة للبيئة".**

الآن، تأمل مرة أخري الرسالة الجوهرية ل**ساعة الأرض**، ستجد أن رسالتها غير خفية: التكنولوجيا هي عدوة للأرض ويجب كبحها لكي "**تنقذ الأرض**"، تماما مثلما أوقف **كلاتو** التكنولوجيا للحفاظ على الأرض في الفيلم.

يتساءل المرء كم عدد مناصري ساعة الأرض الذين تفكروا بجدية في **الشقاء** الذي يلاقيه البشر في الأماكن التي لا توجد بها شبكات كهرباء، حيث الحياة المحفوفة **بالمخاطر**، والتي غالبا ما تكون مغمورة **بالمعاناة** الشديدة من **الجوع والمرض**. في الحقيقة، من أجل أولئك البشر الذين يعانون، نحن بحاجة إلى المزيد من الكهرباء وليس القليل. ربما يحتاج هؤلاء المناصرين لفكرة غلق الأضواء أن يسألوا أولئك الذين يعانون في **كوريا الشمالية** في

العام المقبل، كيف تحلو لهم الحياة في مجتمع غير تكنولوجي.[٩]

لا تعد معاداة الإنسانية سوى جزء من المشكلة التي نواجهها من **كارهي البشر الخُضر** Green Misanthropes. وسيستعرض هذا الكتاب المدى الواسع الذي أفسدته البيئوية الراديكالية في العقلانية العلمية؛ والذي ربما كان عن سبق إصرار. في الواقع، من الواضح جدا بالنسبة لي أن تلك الأيديولوجيا تسعى لاستبدال المنهج العلمي المحايد في الحصول على الحقائق والمعلومات وتطبيقها، بالحماس العاطفي الذي يذكرنا بالحركات شبه العقائدية التي تسعى لفرض تزمتها الفكري على السياسة والقانون؛ وبغض النظر عن النتائج.

والناس بالفعل تلحظ هذا الإفساد الذي أضعف ثقة العامة في القطاع العلمي. فعلى سبيل المثال، قامت مجلة (ساينتفك أمريكان Scientific American) عام ٢٠١١ بنشر مقال مثير للقلق، يسعي لتفسير لماذا "يقول الناس بأنهم يثقوا في العلماء بشكل عام، ولكن يختلفون معهم في قضايا معينة؟".[١٠]

ودعوني أساعد: العامة على قدر كاف من الذكاء يسمح لهم بالتمييز بين من يسمون أحيانا بممارسي **العلم**، وبين مؤيدي **العلم** المسيس، فالنوع الثاني هذا يسعى في كثير من الأحيان إلى الدمج بين تأييدنا الساحق للعلم —من حيث هو علم—، وبين الموافقة على أجنداتهم السياسية والأيديلوجية. بالإضافة إلى ذلك، فهم العامة أن الدراسات العلمية مثلها مثل الكتب المقدسة: يمكنك الخروج منها بكل شيء تريده تقريبا*، وفي كثير من الأحيان تكون النتائج التي يريدها العلماء سابقة على دراستهم الفعلية للأدلة.

ثم هناك محاولة لإفساد المنهج العلمي، من قبل بعض من نصبوا أنفسهم مناصرين

* يريد الإشارة إلى تعدد التفسيرات للشيء الواحد، فكما تجد داخل الدين الواحد أكثر من تفسير للنص المقدس الواحد، فنفس الأمر يتواجد الآن في مجال الدراسات العلمية.

للعلم، عن طريق تبرير الفلسفة المضللة المعروفة بـ(العلموية Scientism). تؤكد **العلموية** على أن العلم ليس قادرًا فقط على أن يخبرنا كيف تبدو الأمور وكيف تسري الأمور، ولكن قادر أيضًا على أن يحدد لنا الصواب والخطأ. وفي كثير من الأحيان في المجال البيئي، انتقل العلماء من الكشف عما هو موضوعي، للدعاية لما هو ذاتي. وكما سيوضح هذا الكتاب، هذا ما يجعل الأمور تخرج عن مسارها تماما.

سنفحص أيضا كيف أصبحت **الحركة الخضراء** الآن **بنية**، ما الذي أعنيه بذلك؟

كثيرًا ما تمتص الأجندات التقدمية (**الحمراء**) الدعاوى الشرعية للبيئويين (**الخضر**). وعندما يختلط الأحمر بالأخضر*، يصبح لدينا (**البُنِّي**). فمن خلال السماح لنفسها لتصبح بشكل صريح مناهضة للرأسمالية والسوق الحر —في إدراكاتها ورسائلها—، تحولت الحركة الخضراء لحركة بنية، وهذا —بجانب الحماس الأيديولوجي— ما يفسر لنا الميل المتزايد من دعاة البيئوية لتبني الحلول السلطوية.

ودعوني أذكر مثالا، كتب المؤلف البيئوي الشهير (ديڤيد شيرمن David Shearman) في عام ٢٠٠٨ مقالة هستيرية حث فيها على تبني السلطوية‡ عالميا لفرض تنفيذ "الإجماع العلمي" في قضية الاحتباس الحراري وغيرها من الطوارئ البيئية العالمية الأخرى. ومثاله الرائع على الإدارة البيئية التقدمية هو؟ جمهورية الصين الشعبية؛ تعرف طبعا تلك البلد التي تفرض الإجهاض القسري، وساحة تيانانمين§، وبيع أعضاء المساجين الذين

* الأحمر عادة ما يشير إلى التوجه الشيوعي في السياسة والاقتصاد.

‡ السلطوية هي حكومة تتميز بدرجة عالية من قوة الدولة، والغياب الغالب للإجراءات المتعلقة بالموافقة الشعبية أو حماية حقوق الأفراد.

§ مظاهرات ساحة تيانانمن كانت مجموعة من الاحتجاجات من قبل طلاب جامعيين صينيين طالبوا بالديمقراطية والإصلاح، وتم قمعها بفتح النار على المتظاهرين من قبل الجيش.

أعدموا... وما إلى ذلك. كل ذلك لا يهم، فشيرمن يؤكد على أن الصين يجب أن تُبَجَل لأنها حظرت استخدام الأكياس البلاستيكية! وفقا لشيرمن:

"نعم الديموقراطية الليبرالية جذابة وتسبب الإدمان، وهي في أقصى الحالات تطرفًا، كالولايات المتحدة الامريكية، تكتسح فيها الحرية الشخصية غير المقيدة العديد من الاحتياجات المشتركة بين المواطنين. هذا الموضوع مقدس ولا يمكن لأحد الاقتراب منه، ومن ينخرط في النقد دائما ما يوصم بالماركسي أو الاشتراكي أو الأصولي، أو أسوا من ذلك بكثير. تستعمل هذه المسميات لأن أي بدائل عن الديموقراطية لا يمكن أن يتم استيعابها! ...

القرار الصيني على أكياس التسوق هو سلطوي بامتياز، وهو مضاد للحلول الطواعية غير الفعالة المطروحة في أغلب الديموقراطيات الغربية. سيكون علينا أن نرى كيف يمكن تنفيذ القرارات السلطوية القائمة على الإجماع العلمي لاحتواء انبعاثات غازات الاحتباس الحراري...وإن لم نتصرف بشكل عاجل قد نجد أنفسنا اخترنا الحرية المطلقة كبديل عن الحياة".[١١]

أها، كما في المناورة القديمة "دعونا نحكم العالم، وإلا سنموت جميعًا".

وحتى صديقنا القديم ديفيد سوزوكي —**الذي يعتقد بأن الناس ديدان**— انضم مؤخرًا للفرقة السلطوية **الخضراء**، حيث صرح برأيه بوجوب سجن السياسيين لانتهاكهم الإجماع العلمي بشأن ظاهرة الاحتباس الحراري. وقال **سوزوكي** لجمهور جامعة ماكجيل: "ما أود أن أطالبكم به هو أن تبذلوا الكثير من الجهد لمعرفة إن كان هناك ثمة وسيلة قانونية للزج بمن يسموا بقاداتنا في **السجون**، لأن ما يفعلونه هو عمل جنائي. إنها **جريمة عابرة للأجيال** في مواجهة كل المعارف والعلوم منذ أكثر من عشرين عامًا".[١٢]

لا يهم أن الحكومات **الماركسية** طالما كانت أسوء المدمرين للبيئة في التاريخ. ولا يهم أن المجتمعات **الديموقراطية** نظفت الشوارع الملوثة، لأن ذلك كان ما يريده الناس. ولا يهم أن **السلطوية** لا تحقق بصفة دائمة غايات معتدلة أبدًا.

الحرية ليست ترفا، وازدهار **الإنسان** يتطلب الحرية والرخاء حيث يمكن أن يتنامى. ويكون الثاني جيدًا عندما يعتمد على استعمال الأراضي وتنمية الموارد. هذه الأنشطة الآن تحت تهديد بارز؛ بسبب التطور الذي يمكن إرجاعه إلى نشاط حركة **الإيكولوچيا العميقة** في سبعينيات القرن الماضي. ومن هنا سنبدأ.

الفصل الأول
المعاداة العميقة للإنسانية

مقدمة

خلال قرنها الأول —حتى قبل الأيام الذهبية لـ(چون ميوَر John Muir) وثيودور روزڤلت— نجحت الحركة البيئية بشكل بارع. في عام ١٨٧٢، وقع الرئيس الأمريكي يوليسيس جرانت قانون إنشاء يلوستون كأول متنزه وطني في العالم. والآن يوجد ١٢٠٠ متنزه وطني ومحمية طبيعية في جميع أنحاء العالم، هذا فضلا عن جهود الحماية الحكومية والمحلية.

ليس هناك شك في أن الدافع للنمو الاقتصادي أدى إلى ممارسات بيئية سيئة لفترة من الوقت. لكنها لم تستمر. وكرد فعل ضد تلوث منتصف القرن العشرون، واجه الشعوب والحكومات في جميع أنحاء العالم التلوث الصناعي غير المقبول الذي أفسد الهواء والماء، وبدأوا في إعادة صياغة المعايير الصناعية للحد من تلك الانبعاثات والشروع في تنفيذ مهمة تنظيف ما فسد في الماضي، وما زالت العملية مستمرة حتى اليوم.

أثمرت هذه الجهود غايتها المنشودة، فقد كان في لوس أنجلوس مختنقا من الضباب الدخاني الكثيف، للدرجة التي لا تجعلك قادرًا على رؤية جبال (سان جيبرييل San Gabriel) المجاورة. إلا أنه خلال سنوات قليلة أصبحنا نستطيع التنفس بشكل أسهل وأفضل، وأصبحنا قادرين على رؤية التضاريس المحلية.

وفي أماكن أخرى أوقفت جهود التنظيف ظاهرة اشتعال الأنهار، وجعلت البحيرات صالحة لحياة الأسماك وغيرها من أشكال الحياة البرية من جديد، وعالجت مقالب النفايات السامة. باختصار، ساهمت الحركة البيئية بقوة في صنع عالم أفضل وأصح وأنظف.

لكن ابتداء من أواخر الستينات، بدأت حملة هدامة كارهة للبشر تولد من رحم البيئوية؛ وجهة النظر التي لا ترى الأرض بما فيها —بصياغة الكتاب المقدس— ملك للإنسان

يطوعها لمصلحته. بدلا من ذلك، هاجمت البيئوية البشر ووصمتهم بالمرض الذي يصيب هذا الكوكب، ورأت أن أفضل معالجة ممكنة لذلك هي استخدام المضادات الحيوية لتخفيض التعداد البشري على أوسع نطاق، ومعارضة أي تنمية أو تطوير اقتصادي.

الإيكولوچيا العميقة تنجب حركة معاداة الإنسان

مهدت حركة الإيكولوچيا العميقة الطريق لبيئوية معادية للإنسانية. صيغ هذا المصطلح من قبل الفيلسوف النرويجي (أرني ديكّي أيدي نيس Arne Dekke Eide Næss)، والذي ألهمه كتاب (الربيع الصامت Silent Spring) للبيئوية (ريتشل كارسُن Rachael Carson) لنفي استثنائية الإنسان والدفاع عن أن كل جانب من جوانب العالم الطبيعي —بما فيه من البشر— متساو بين الجميع. علاوة على ذلك، أصر على أن كل عنصر له الحق في أن يعامل بنفس الاعتبار الذي نتعامل به في أنماط حياتنا الفردية، وفي السياسات العامة التي نتبعها. بعبارة أخرى، البشر ملزمون بواجب رعاية باقي العالم الطبيعي بنفس القدر الذي يفعلوه لأنفسهم؛ حتى لو كان ذلك سيكون على حساب البشر بشكل واضح.

وخلافًا للأفكار التي ميزت الاتجاه السائد للفكر البيئي في ذلك العصر —التي أطلق عليها **أرني نيس** "الإيكولوچيا الضحلة Shallow Ecology"، والتي تبحث في استنزاف الموارد، التلوث، إلخ؛ أي فيما يتعلق بصحة الإنسان ورخائه— طالب **أرني نيس** البشر بالتخلي عن الازدهار المادي والاتحاد من أجل الحياة النباتية والحيوانات كقضية مشتركة. تبنى **نيس** أيضا اتجاها مالتوسياً* متطرفا[١٣]، مصرًا على أن تعداد البشر يجب أن ينخفض إلى ١٠٠ مليون فقط (تعداد العالم الآن ٧ مليار). بالطبع هذا الرقم يستحيل أن يقضي عليه إلا في حالة حدوث إبادة جماعية، أو كارثة ناجمة عن انتشار وباء ما بين البشر، أو

* المالتوسية هي عقيدة اقتصادية ترى بأن الزيادة السكانية تؤدي إلى انتشار الفقر والجوع، وتُرجع ذلك إلى محدودية الموارد الطبيعية.

في حالة الانهيار التام للتكنولوجيا.

على مر السنين، طور **أرني نيس** وزملائه فكرة الإيكولوچيا العميقة وأسسوا لحركة اجتماعية وكتبوا لها قائمة من الأهداف الأيديولوجية. نشرت القائمة عام ١٩٨٤ بمساعدة (چورچ سيشنز George Sessions). في ذلك الوقت، كانت هذه الأهداف متطرفة جدا، لكن كما سنرى، لقد أصبحت الاتجاه السائد داخل البيئوية المعاصرة.

برنامج الإيكولوچيا العميقة:

(١) سلامة وازدهار ما هو حيّ —من البشر وغير البشر— على الأرض له قيمة في حد ذاته، وقيمة تلك الأشكال غير البشرية للحياة مستقلة عن النفع الذي تقدمه للأغراض البشرية.

(٢) وفرة وتنوع أشكال الحياة تسهم في تحقيق تلك القيمة، وهي أيضا قيم في ذاتها.

(٣) ليس للبشر الحق في إنقاص هذه الوفرة والتنوع إلا لتلبية حاجاتهم الحيوية.

(٤) التأثير الراهن للبشر على العالم غير البشري هائل، والوضع يتفاقم بشكل متسارع.

(٥) يتوافق ازدهار الحياة البشرية وثقافاتها مع خفض موازٍ لعدد سكان الأرض، ويسهم هذا في ازدهار الحياة غير البشرية أيضًا.

(٦) يتطلب التغيير نحو الأفضل في شروط الحياة تغييرًا في السياسات والتدابير المعتمدة، وهذا ينبغي أن يؤثر على البنى الأساسية الاقتصادية والتكنولوجية والأيديولوجية.

(٧) إن التغيير الأيديولوجي الرئيسي المطلوب هو ذلك الذي يقدِّر ويثمِّن نوعية الحياة (العيش في حال القيم الجوهرية)، وليس ذلك الذي يلح على مستوى عال من الرفاهية. ينبغي أن يكون هناك وعي عميق بالفرق بين مفهومي الكبير big والرفيع great.

(٨) على من يقرُّ بالنقاط السابقة ويؤيِّدها إلزام —مباشر أو غير مباشر— في المشاركة والسعي لإنجاز التغييرات الضرورية.[١٤]

اقرأ البرنامج بتمعن. لو سمح لنا باستغلال الموارد، فهو من أجل تلبية "الحاجات الحيوية" فقط، مرة أخري يعتمد بقاؤنا ووجودنا إلى حد كبير على رحمة الطبيعة، التي كانت خلال معظم تاريخنا واقعًا قاتمًا للغاية، حيث كانت حياة معظم البشر يائسة وقاسية وقصيرة. ماذا لو تصرف أسلافنا على أساس أن العالم الطبيعي له قيمة جوهرية "مستقلة" عن "النفع... الذي يقدمه للأغراض البشرية"؟ بالتأكيد كنا سنحبط بشكل كبير محاولات التقدم الحديثة مثل التصنيع والكهرباء والسفر باستخدام الآلة وما شابه ذلك. في الواقع، سعينا الدائم لتحسين البقاء الإنساني خلق نوعًا من الازدهار المادي، وارتفاعًا في مستوى الصحة إلى حد كبير، وارتفاعًا في متوسط العمر؛ استفاد منها العالم المتقدم.

ينبغي أن تكون مهمتنا هي مواصلة إتاحة تلك التطورات الهائلة على الصعيد العالمي لإخواننا وأخواتنا الذين مازالوا يعانون في **العالم النامي**. لكن تطبيق قيم **الإيكولوچيا العميقة** من شأنه إجهاض هذا الهدف النبيل، وإحداث تغيير كامل مفاجئ، وتفكيك ما قد أنجزناه حتى الآن. وذلك يعني، أنه بدلًا من أن تكون خطوة تقدمية تجاه وجود أكثر استنارة كما تدعي، كانت الإيكولوچيا العميقة فعلا رجعية بشكل بالغ، ترفض الحداثة بشكل صريح، وترغب في العودة إلى الأيام السيئة الماضية حيث الصراع من أجل البقاء.

لكن هناك ما هو أكثر من البغض الواضح للتنمية الصناعية والتوسع العمراني المصاحب. فالإيكولوچيا العميقة تسعى لخلق **دين الأرض الجديدة** كأساس للنظام الأخلاقي الإنساني الجديد؛ منغمسًا بمعاداة الرأسمالية ورافضًا للتكنولوجيا. وبالتالي، يؤكد بيان رسالة مؤسسة الإيكولوچيا العميقة أن "المشاكل الحالية" —مثل ادعاء سلب العالم الطبيعي مصادره— "تمتد جذورها أساسا إلى الحالات التالية":

- ضياع المعارف التقليدية والقيم والأخلاقيات التي تمجد القيم الجوهرية والقدسية الموجودة في العالم الطبيعي، والتي تعطي مهمة الحفاظ على الطبيعة الأهمية الرئيسية...

• النماذج الاقتصادية والتنموية السائدة في العالم المعاصر، والتي تعطي لقيم السوق الأهمية الأولية وليس للطبيعة...

• عبادة التكنولوجيا* والإيمان اللامحدود بمزايا العلم؛ الإطار الفكري الحديث الذي يرى التطور التكنولوجي أمر حتمي، وجيد دائمًا، ومساو لتقدم ومصير الإنسان.(١٥)

باختصار، الإيكولوچيا العميقة معادية للبشر بشكل بالغ. فهي لا تحط فقط من قيمة الإنسان، لكن ترفض أيضا التقدمات البشرية الجوهرية —في العلوم والتكنولوجيا والنمو الاقتصادي— التي حررتنا من الاحتياج للكثير من الأشياء.

بشهادة جميع المصادر، كان **أرني نيس** شخصًا لطيفًا، حيث كان يؤمن بأن وجهات نظره الرجعية ستحسن الحالة الإنسانية. لكن هذا لا يمكن أن ينطبق على العديد من البيئويين المعادين للإنسانية، فعلى أيديهم أصبحت التوجهات الأساسية للإيكولوجيا العميقة أكثر عدوانية في مواجهة البشرية.

نظرية «جايا»

بينما كان أرني نيس يستحضر الإيكولوچيا العميقة في نفس الوقت تقريبا افترض فيلسوف بيئي أخر يدعي (**چيمس لَڤلوك James Lovelock**) فكرة متطرفة على نفس

* للمؤلف آراء واضحة ضد عبادة التكنولوجيا، خاصة لدى دعاة الـ Transhumanism أو ما بعد الإنسانية، بل هو لا يرى أيضا أن التكنولوجيا جيدة دائما وأبدا، ويشرح بتوسع في كتابه Consumer's Guide to a Brave New World كيف يمكن أن تستغل التكنولوجيا الحيوية في اتجاهين متضادين تماما، أحدهما فيه نفع لحياة البشر وعلاج للأمراض الصعبة، وفي الآخر الضرر ومعاداة البشرية... والشاهد أن الاعتراض هنا ليس ضد ما تدعيه الإيكولوچيا العميقة من رفض لـ"عبادة التكنولوجيا"، ولكن ضد نظرتها الرافضة للتكنولوجيا من الأساس.

المستوي، والتي أصبحت تعرف باسم **نظرية جايا**؛ الأرض (الإلهة الوثنية جايا) "تطورت... كنظام حياتي واحد ذاتي التنظيم".[١٦] تفترض **نظرية جايا** —كما لو كان الكوكب ذكيًا— أن "الحياة تبقي على الظروف المناسبة لبقائها"، وذلك يحثنا على معاملة البيئة —بشكل أكثر دقة؛ الأرض— وكأنها كائن حي: "نظام حياة الأرض يمكن أن يُرى كمثيل لأعمال أي كائن حي من تنظيم حرارة الجسم وتنظيم درجة ملوحة الدم، إلخ".

نشر بروفيسور جامعة أريزونا (**ألبرت بيرچيسن** Albert J. Bergesen) مقالا في (سان فرانسيسكو كرونيكل San Francisco Chronicle) في عام ٢٠٠٦، عرض فيه بحماس فكرة الإيكولوچيا العميقة في المساواة بين البشر والطبيعة، ودعمها بنظرية جايا. افترض **بيرچيسن** بأنه يتعين علينا التفكير في أنفسنا كـ"كائنات بيئية". رافضًا فكرة **استثنائية الإنسان** بكل صراحة، وأعلن أن البشر **تتساوى معنويا** بالصخور والعناكب والفطريات والأشجار والعوالق والسناجب، بل وجميع ما في الطبيعة.

مساواتية بيرچيسن الإيكولوچية Eco-Egalitarianism دعت أيضًا إلى دين غامض لشبه الأرض:

> مواصلة التركيز لإدراك إنسانيتنا يحيرنا فقط في حقيقة وجودنا البيئي، لأننا كنا أصلا جزءًا من هذه الطبيعة قبل اكتسابنا مظاهر كوننا بشرًا. المكان التصنيفي للوعي الإنساني أو الحيواني، أو حتى النباتي أو الصخري أو النهري أو الجبلي، قد يكون مجرد حادثة ميلاد جايية صدفوية.
>
> فكر في هذا: لو اعتقدنا أننا في نهاية المطاف كبشر أسفل الفئات الاجتماعية التي نحتلها، فلما لا نكون في الأساس كائنات بيئية أسفل فئات الأنواع التي نحتلها؟ ولو أن الهدف الإنساني السابق هو إدراك كيان نوعنا البشري، لما لا يكون الهدف البيئي

الجديد أن ندرك كياننا البيئي؟ لكن إن استمرينا في تعريف أنفسنا كبشر فقط، سنصل إلى حالة من العزلة البيئية، وكلما اندفعنا تجاه الاهتمامات الإنسانية فقط، كلما سيزداد إنكارنا لحقيقة طبيعتنا البيئية.[١٧]

ما الذي يعنيه ذلك من الناحية العملية؟ لم يقل بيرچيسن، لذلك اسمحوا لي: لو أن الفطريات والنمل يتساوون مع الإنسان، فنحن مطالبين أخلاقيا لإخضاع سلامة وسعادة الإنسان لضمان حصولهم على معاملة منصفة إقرارًا منا بقيمتهم المعنوية المفترضة المتساوية مع قيمتنا كبشر. هذه الفكرة —التي صِيغَت في إطار دارويني جديد من قبل البعض وفي إطار روحاني جديد من قبل الأخرين (كبيرچيسن)— تجاوزت تمامًا الاعتقاد بالمساواة الأخلاقية بين الإنسان والحيوان الذي طرحته حركة حقوق الحيوان. يعني إن أردت إعادة صياغة عبارة (إنجريد نوكيرك Ingrid Newkirk) أحد مؤسسي منظمة (**بيتا*** **PETA**) غير المشهورة بالمرة، فيمكنني القول: "الفأر هو الخنزير هو الكلب هو الطفل هو الخنفساء هو نهر بوتوماك". (لعرض مفصل ونقد لإيدلوجية حقوق الحيوان، اطلع على كتابي **الفأر هو الخنزير هو الكلب هو الطفل: الثمن البشري لحقوق الحيوان A Rat is a Pig is a Dog is a Boy: The Human Cost of the Animal Rights**).[١٨]

تنسجم نظرية جايا بسلاسة مع الإيكولوچيا العميقة، وكلاهما يرفضان استثنائية الإنسان. كلاهما يقللان من الأهمية الجوهرية للإنسانية. كلاهما أعادوا تعريفنا على أساس أننا مجرد عضو واحد متساو مع غيره (لنقتبس التشبيه المسيحي) —بدون أي فارق في الأهمية المعنوية— في جسم جايا. كلاهما وجدوا في الحركة البيئية قضية أنبل وأسمى من ترويج فكرة الازدهار الإنساني. وكلاهما، مع قوة الجذب المطلقة للمنطق البشري، يؤديان إلى مبادئ

* **بيتا** هي منظمة أمريكية تطالب بحقوق الحيوانات، وشعارها هو: "الحيوانات ليست ملك لنا لكي نأكلها، نرتديها، نجرب عليها، نستعملها للتسلية، أو نستغلها بأي طريقة أخرى".

وقيم وعقبات كارهة للبشر بشكل بالغ.

نظرا للتشابه بينهما في المنهجية والغاية الفلسفية، لا يدهشنا أن يكون **لَڤلوك** من أوائل المؤمنين بظاهرة الاحتباس الحراري، أو أنه تبنى عقيدة الإيكولوچيا العميقة في خفض جزري كارثي محتمل لتعداد السكان كعلاج لتلك المسألة. ومن ثم، في الصفحة ١٥٤ من كتابه (**انتقام جايا The Revenge of Gaia**) المنشور عام ٢٠٠٦، ناشدنا **لَڤلوك** بقوله "يتعين علينا أن نصغي إلى منظري الإيكولوچيا العميقة، ولندعهم يرشدونا":

> يبدو أن هذه الفرقة الصغيرة من منظري الإيكولوچيا العميقة يدركون تماما –أكثر من غيرهم من المفكرين البيئيين– الجهد المراد بذله لتغيير العقول، لكي يعم السلام مرة أخرى في أرجاء **جايا** الأرض الحية. وكما يجعل القديسين من الرجال والنساء حياتهم كلها شاهد علي إيمانهم، يحاول منظري الإيكولوچيا العميقة أيضا العيش كمثال جايي لنحتذي بهم.(١٩)

لو تم تطبيق نظرية جايا والإيكولوچيا العميقة بالفعل، فسيؤديان إلى انهيار الحضارة الحديثة. تخفيض المليارات من التعداد البشري –إثر إبادة بشرية ستبدو وكأنها حدث عديم الأهمية– يبدو منطقيا فقط إذا اعتُبِرت **جايا** كائن حي واعتُبِر **البشر** كائن خطير مسبب للأمراض. لهذا أشار إحدى نقاد الكتب إلى الانعطاف الغاشم في دعوة چيمس **لَڤلوك**:

> "إذا أردنا أن نستمر كحضارة باستطاعتها تجنب الكوارث الطبيعية، يتعين علينا وضع قيود على التنمية بأسرع وقت ممكن وتقوية هذه القيود". أما إن بقيت الأمور كما هي، إذًا فنحن بدون قصد في حالة حرب مع **جايا** ويتعين علينا الموافقة على تقنين "فترة الحرب" و"فقدان الحرية" مؤقتًا.

قيود صارمة؟ وفقدان الحرية؟ ما الفرق إذن بين هذا والفاشية الإيكولوجية؟ إلى متي

سيتعين على البشرية التضحية بأن ينخفض تعدادها بشكل حاد إرضاءً **لجايا؟** في الواقع، صرح لَفلوك بأن نحو **تسع أعشار** تعداد السكان يجب أن يتلاشى: "شخصيا أرى أننا يجب أن نكون على قدر من الحكمة يجعلنا نسعى لأن يكون تعداد السكان مستقر في حدود من نصف إلى واحد مليار فقط". ولتحقيق هذا الهدف، يجب "تنظيم" كلا من معدل المواليد ومعدل الوفيات "كجزء من التحكم في تعداد السكان". أي أننا سوف نستولد، ونُدار، وستكبح أعدادنا لو زدنا عن الحد المسموح، تماما مثل قطيع من الحيوانات في مزرعة. إن لم يعتبر ذلك شمولية*، فماذا يكون؟(٢٠)

لقد أصبحت كلًا من الإيكولوچيا العميقة ونظرية جايا حسنتا الصيت، بعدما كان ينظر إليهما كقيم راديكالية متطرفة ويمكن الإعراض عنها لكونها جنون محض. للأسف الشديد، كما سنرى، نمت نوازع المنظرين الأوائل كعاصفة حاصدة، وأصبحنا على أعتاب الطوفان.

* الشمولية أو الكُليَّانية؛ هو مفهوم مستعمل من علماء السياسة لوصف الدولة التي تحاول فرض سلطتها على المجتمع وتعمل على السيطرة على كافة جوانب الحياة الشخصية والعامة قدر إمكانها، ما يميزها عن السلطوية هو أن الشمولية تسعى للتحكم بكافة أوجه الحياة بما في ذلك الاقتصاد والتعليم والفن وأخلاقيات المواطنين.

الموضوع	الصفحة

الفهرس

لماذا هذا الكتاب؟! ٨

مقدمة: البشر هم العدو! ١٣

الفصل الأول
المعاداة العميقة للإنسانية

مقدمة ٢٦

الإيكولوچيا العميقة تنجب حركة معاداة الإنسان ٢٧

نظرية «جايا» ٣٠

الفصل الثاني
أيها البشر، اختفوا من هنا!

مقدمة ٣٦

الخفض الوحشي لتعداد البشر ٤٠

مشروع جبل الظلام: تبني اللاحضارة ٤٤

نُصب جورجيا الصخري يحث على الإيكولوچيا العميقة عالميًا ٤٧

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
هستيريا الاحتباس الحراري

مقدمة ٥٠

هيستريا الاحتباس الحراري ٥٢

الفصل الرابع
سامحونا على أننا نعيش!

مقدمة ٧٠

ارفع من حدة الفقر لكي تبرد الكوكب! ٧٥

السلطويون هم نحن! ٨٠

هيا نعاقب أفران الكوكب! ٨٤

من يحتاج إلى حرية الرأي؟! ٨٧

ربما تنكسر الحمى الآن ٨٩

الفصل الخامس
"حقوق" الطبيعة

مقدمة ٩٢

الإعلان العالمي لحقوق الطبيعة ٩٤

وصفة لدعاوى قضائية لا تنتهي ١٠١

الفصل السادس
شخصية البازلاء

كرامة النبات ١٠٥

الموضوع	الصفحة

حبات البازلاء أشخاص أيضًا ١١٢

الفصل السابع
الإبادة البيئية... جريمة ضد الإنسانية!

هذه هي "الإبادة البيئية" ١١٧

تجريم الإبادة البيئية جريمة ضد الإنسانية ١٢١

"الإبادة البيئية" ليست دائمة ١٢٦

الخاتمة: المخلص القديم ليس شخصا! ١٣٠

شكر وتقدير ١٣٦

المراجع ١٣٩

الفهرس ١٥٧

مركز براهين للأبحاث والدراسات

Braheen Center for Research and Studies